Journal of Arabic Language and Literature
Volume (1), Issue (5) : 30 Dec 2022
P: 86 - 107

ISSN: 2790-7317

مجلة اللغة العربية وآدابها
المجلد (1)، العدد (5) : 30 ديسمبر 2022 م
ص: 86 - 107

The City's Image in Muourid Al-Barghouti's Fictional Biography "I Saw Ramallah"

Amal Mahmoud Abu Own
College of Graduate Studies || An-Najah National University || Palestine

Abstract: This research discusses the image of "Ramallah" in Mourid Al-Barghouti's fictional biography "I Saw Ramallah " to spot light on the city's transformations in the Palestinian novel. He described Ramallah at a pivotal moment in the history of the Palestinian cause, which impacted the writers' attitude towards the occupied city of Ramallah, as it became the center of the new Palestinian National Authority. Al-Barghouti resorted to make a comparison between the city's image in his mind by recalling his memories and its current image. He, thus, painted an image of the city in two different phases: the first before (the Naksa) in 1967, and the second after (Oslo) in 1993. The researcher used the descriptive analytical method. Because its convenient for comparison, and helps to reach conclusions from the available data.

The research reviewed the image of Ramallah as it appeared in the biography between these two phases (before the Naksa and after Oslo) with its different temporal, spatial, social, and political dimensions and the city's relationship with the countryside. And it presented the most important transformations that occurred in the city after Oslo; the most prominent of which was the political aspect, in addition to presenting Al-Barghouti's position from the city in the two phases.

Keywords: Ramallah, City Transformations, Palestinian Novel, Fictional Biography.

صورة المدينة في السيرة الروائيّة "رأيت رام الله" لمريد البرغوثيّ

أمل محمود أبو عون
كليّة الدراسات العليا || جامعة النجاح الوطنيّة || فلسطين

المستخلص: يتناول هذا البحث صورة مدينة "رام الله" في السيرة الروائيّة للشاعر مريد البرغوثيّ الموسومة بـ" رأيت رام الله"، بهدف الوقوف على تحوّلات المدينة في الرواية الفلسطينيّة. فقد صوّر البرغوثي في سيرته مدينة رام الله في لحظة مفصليّة من تاريخ القضيّة الفلسطينيّة تركت أثرا في موقف الأدباء من مدينة رام الله المحتلّة التي أصبحت مقرّا للسلطة الوطنيّة الفلسطينيّة الناشئة. وفيها لجأ البرغوثيّ إلى المقارنة بين حال المدينة وفق صورتها العالقة في ذهنه من خلال استعادة الذكريات وصورتها الحاضرة عند عودته إثر اتّفاقيّة أوسلو، فرسم لها صورة في مرحلتين مختلفتين: الأولى قبل (النكسة) عام 1967، والثانية بعد (أوسلو) عام 1993م. وقد اقتضت الدراسة توظيف المنهج الوصفيّ التحليلي؛ لمناسبته لطبيعة الدراسة التي تقوم على المقارنة، وحرصا على الموضوعيّة من حيث مساعدة الباحثة على استخلاص نتائج تستند إلى البيانات المتوفرة.

تضمّن البحث صورة رام الله كما بدت في السيرة بين هاتين المرحلتين (قبل النكسة، وبعد أوسلو) بأبعادها المختلفة: البعد الزمانيّ، والبعد المكانيّ، والبعد الاجتماعيّ، والبعد السياسيّ، وعلاقة المدينة بالريف، ورصد أهمّ التغيّرات التي طرأت على المدينة بعد أوسلو وأبرزها تمثّل في الجانب السياسيّ، إضافة إلى عرض موقف البرغوثيّ من المدينة في المرحلتين.

الكلمات المفتاحيّة: رام الله، تحوّلات المدينة، الرواية الفلسطينيّة، السيرة الروائيّة.

المقدّمة

الحمدُ لله الذي أنزل على عبده الكتاب المبين، هدًى ورحمةً للمتّقين، والصلاة والسلام على أشرفِ الخلقِ والمرسلينَ محمّد –صلّى الله عليه وسلّم- وعلى آلهِ وصحبهِ إلى يومِ الدينِ. أمّا بعد،

فقد تناولت هذه الدراسة صورة مدينة رام الله في السيرة الروائيّة "رأيت رام الله"، للشاعر الفلسطينيّ مريد البرغوثيّ، لما تميّزت به من تناول صورة المدينة في مرحلة حرجة من تاريخها بعد اتّفاقيّة (أوسلو)، وما صحبها من تحوّل صارخ في المدينة على جميع المستويات الماديّة والبشريّة. وذلك من خلال الإجابة عن سؤالين رئيسين هما: كيف بدت صورة المدينة في السيرة خلال تلك الفترة؟ وما موقف ابن المدينة العائد من هذا التغير؟

للإجابة عن هذين السؤالين جاءت الدراسة في عدّة محاور: بدأت بالعلاقة بين البرغوثيّ ومدينة رام الله، ثمّ صورة رام الله في "رأيت رام الله": البعد الزمانيّ، والمكانيّ، والاجتماعيّ، والسياسيّ، وعلاقة رام الله بالريف (دير غسّانة)، فموقف الأديب من المدينة. واقتضت الدراسة توظيف المنهج الوصفيّ التحليليّ لرصد صورة المدينة وموقف الأديب منها في زمنين مختلفتين، فقامت برصد جميع الإشارات التي تتعلّق بمدينة رام الله في السيرة، وعرضتها من زوايا متعدّدة؛ ممّا ساعدها على استخلاص صورة المدينة عند البرغوثيّ وفق المعطيات المتوفّرة، ومراعاة الموضوعيذة في استخلاص النتائج.

وبعيدا عن إشكاليّة تجنيس العمل الأدبيّ بين السيرة والرواية فقد اعتمدت الباحثة وصف الرواية في الإشارة إليها -كما جاء في معظم الدراسات النقديّة التي تناولتها- انسجاما مع الأسلوب الروائيّ الذي اعتمده الأديب فيها، ومن هذا المنطلق أيضا، لجأت الباحثة في المادّة الأدبيّة إلى المصادر والمراجع الخاصّة بفنّ الرواية، واعتمدت عليها في دراسة النصّ وتحليل صورة المدينة فيه.

حظيت سيرة البرغوثي "رأيت رام الله"، الحائزة على جائزة "نجيب محفوظ للإبداع الأدبيّ، باهتمام جماهيريّ؛ لفنيّتها العالية، وتناولها تجربة إنسانيّة وقفت على معاناة الفلسطينيّ في الشتات، إلى جانب تناولها المشهد الفلسطينيّ بعد اتفاقية (أوسلو) التي كانت نقطة مفصليّة في تاريخ المقاومة الفلسطينيّة. وركّزت معظم الدراسات على موقف البرغوثيّ السياسيّ واهتمت بتحليل العنوان ودلالته إديولوجيّا، مثل دراسة زين العابدين العووادة "البنية الدلاليّة لخطاب السيرة الروائيّة الفلسطينيّة المنجز بعد أوسلو..."، ومن الدراسات التي تناولت فضاء المكان فيها:

1- "سرديات رام الله في الأدب الفلسطينيّ (فاروق وادي ومريد البرغوثي نموذجا)" وهي رسالة جامعيّة للباحثة آلاء قرمان فوقفت فيها على عتبة العنوان، والفضاء المكانيّ، والزمانيّ، فيما يتقاطع مع هذه الدراسة، إلى جانب صورة الآخر: العدوّ والعائلة. وقد تناولت هذه الدراسة جزءا كبيرا من وصف المدينة ولكن دون استقصاء أبعادها المختلفة، أو بيان موقف الأديب منها.

2- "حضور المكان في (رأيت رام الله) لمريد البرغوثيّ"، وهي رسالة جامعيّة للباحثة أروى الشاهين، وقفت في الجزء التطبيقيّ منها على فضاء الجسر، والفندق، ودير غسّانة.

3- "المكان في الرواية الفلسطينيّة بعد أوسلو 1993"، وهي رسالة جامعيّة للباحث عدوان عدوان، وقف في فصل منها على فضاء الجسر والمنفى في "رأيت رام الله".

ولم تقف الباحثة على دراسة تناولت صورة متكاملة لمدينة "رام الله" في هذه الرواية، ومن هنا جاءت أهميّة هذه الدراسة في تقديم صورة متكاملة للمدينة فيها، ورصد تحوّلات المدينة في فترة حرجة من تاريخ المدينة، وموقف البرغوثيّ منها.

جاءت صورة المدينة أشبه بلوحة فسيفسائيّة، تنوّعت ألوان قطعها وأشكالها وأحجامها. سعت الباحثة لجمعها وإعادة ترتيبها؛ لتكوين صورة جليّة المعالم والتفاصيل، فكانت الدراسة أشبه بجولة سياحيّة شاقّة لكنّها

ماتعة لجمال أسلوب الأديب ولغته الشعريّة، ولعلّ مخرج هذه الدراسة يكون على قدرٍ يليق بجمال اللوحة ولغة الأديب.

البرغوثيّ ومدينة رام الله

ولد مريد البرغوثيّ في قرية دير غسّانة شمال رام الله، وعاش طفولته فيها. ثمّ انتقلت أسرته للسكن في رام الله وفيها أكمل تعليمه الثانويّ، وعاش حياة المدينة بتفاصيلها دون تذمّر أو شعور بالغربة، فلم يشكّل هذا الانتقال صدمة في حياته كما شكّل الانتقال إلى المدينة صدمة عند معظم شعراء العصر الحديث؛(1) وذلك لأنّ أجواء رام الله كانت أقرب إلى أجواء القرية كما أكّد على ذلك بقوله: "لكن جوّ الحياة في رام الله والبيرة معا يظلّ جوّا ريفيّا".(2)

سافر البرغوثيّ إلى مصر؛ ليلتحق بجامعة القاهرة. وفي عام 1967 وقعت النكسة، فمنعت حكومة الاحتلال الفلسطينّيين الذين صادف وجودهم خارج فلسطين من العودة إليها؛(3) وهكذا أرغم على العيش في منفى لم يختره، فعاش في القاهرة إلى أن تمّ ترحيله عنها عام 1977 بعد دخول مصر مرحلة التطبيع الرسميّ مع الاحتلال.(4) وبقيت زوجته الأديبة المصريّة رضوى عاشور في القاهرة مع ابنه تميم، أمّا هو فظلّ يتنقّل في مدن العالم مُعلَّقا بين أسرته في القاهرة ورام الله التي لم تغب عنه يوما طوال ثلاثين سنة، ولم تشغله عنها مدن العالم، فظلّت تسكن فيه بأماكنها وذكرياته فيها، إلى أن عاد إليها إثر معاهدة (أوسلو)، تاركا وراءه العالم، مقبلا على عالمه.(5)

لم يتنكّر البرغوثيّ في غربته لقريته دير غسّانة، لكنّه كان يشعر بانتمائه لعالم المدينة يقول: "إنّنا لا نبكي على طابون القرية بل على مكتبة المدينة"،(6) تلك المدينة التي اجتمع اسمه مع اسمها في بطاقة هويّته،(7) وكان يعدّ السنوات التي عاشها مهجّرا وقتا مقتطعا من عمره، يقول:" كلّ القصّة في المكان. يمنعونك من امتلاكه فيأخذون من عمرك ما يأخذون".(8)

ونظرا لغربته القسريّة عنها، وكون رام الله ما زالت محتلّة، وتتعرّض لانتهاكات الاحتلال المستمرّة، فقد كان يغلب عليه مشاعر الانتماء، والإشادة بالمدينة وأهلها، والرغبة في إبراز وجهها الحضاريّ الأصيل، شأنه في ذلك شأن الشعراء في النظر إلى المدينة المحتلّة،(9) كما لجأ إلى وضعها في مقابلات مع المدن الأخرى ولا سيّما المدن المحتلّة عام 1948،(10) أو المقارنة بين صورة أبنائها وصورة الآخر (المحتلّ).

ومن خلال سيرة الشاعر (رأيت رام الله) يمكننا تلمّس أبعاد صورة مدينة رام الله وموقف البرغوثيّ منها.

(1)عباس، إحسان: **اتّجاهات الشعر العربي المعاصر**. ط2. عمّان: دار الشروق للنشر والتوزيع. 1992م. ص 90

(2) البرغوثي، مريد: **رأيت رام الله**. ط4. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربيّ. 2011م. ص 177

(3) السابق. ص 7

(4) السابق. ص 109

(5) السابق. ص 5

(6) السابق. ص 176

(7) السابق. ص 165

(8) السابق. ص 106

(9) ينظر: عبيدات، زهير محمود: **صورة المدينة في الشعر العربيّ الحديث**. عمّان: دار الكندي. 2006م. ص 81 - 86

(10) البرغوثيّ. مصدر سابق. ص 176

صورة المدينة في "رأيت رام الله"

للمدينة بشكل عام حضور خاصّ في الرواية العربيّة والعالميّة وكانت غالبا تأتي في مقابلة مع الريف، فالمدينة "تلم فضاءاتها الطبيعيّة والماديّة لتنسج ظلالا للشخصيّات والأفعال وتملأ الفضاء الروائيّ بعلامات واستعارات فنيّة".(11) وفي الرواية الفلسطينيّة شغلت المدينة الحيّز المكانيّ الأكبر نظرا لارتباط البيئات الأخرى (القرية والمخيّم) بها رسميّا أو اقتصاديّا أو اجتماعيّا، إضافة لوجود المؤسّسات الرسميّة فيها،(12) وكانت أكثر المدن الفلسطينيّة حضورا هي نابلس، ورام الله، والقدس، وغزّة؛(13) فتلك المدن هي الممثل الأكبر للوطن الفلسطينيّ في ظلّ غياب العاصمة بمفهومها السياسيّ والمدنيّ.

لم تكن رام الله كغيرها من المدن بل هي مدينة استثنائيّة، ففضلا عن كونها مركزا تجاريّا للقرى المحيطة بها، يبيعون فيها الزيت، ويودعون أموالهم في بنوكها،(14) فقد اكتسبت أهميّة سياسيّة لقربها المكانيّ من القدس العاصمة التاريخيّة والروحيّة لفلسطين، ومن ثمّ وجود المؤسّسات فيها بسبب الوضع السياسيّ في القدس.(15)

في التسعينات أصبحت تمثّل مركزا مؤقّتا للسلطة الوطنيّة الفلسطينيّة؛ امتثالا للوضع التفاوضيّ الذي لم يصل بعد لاتّفاق حول مدينة القدس، وهذا جعلها تقوم بالدور الذي تمثّله العاصمة في الدول الأخرى. وفيها بدأت مرحلة جديدة في تاريخ القضيّة الفلسطينيّة، تحوّل فيها موقع الفدائيّ من مواجهة العدوّ إلى ملاحقة أبناء الوطن.

وفيما يلي محطّات للوقوف على صورة رام الله في الرواية، وموقف البرغوثيّ منها بأبعادها المختلفة.

أولا: البعد الزمانيّ

لا يقتصر الزمن في الرواية على التسلسل التاريخيّ للأحداث، أو ذاك الزمن الذي يرتبط بالأيام أو الساعات أو غير ذلك من الوحدات المعتادة لقياس الزمن، فإلى جانب هذا الزمن هناك زمن ذاتيّ للكاتب، قد يطول أو يقصر عن الزمن الحقيقيّ،(16) وهذا ما نجده في الرواية، فقد كان لزمن المدينة عند البرغوثيّ معنى خاصّ، توزّع في محطّتين رئيستين: رام الله الستينات، ورام الله التسعينات، فرسم صورة للمدينة في كلتا المحطتين.

وقد جمع بين المحطتين من خلال ثنائيّة تقليديّة في عالم الرواية؛ إذ يستدعى الزمن الراهن للرواية زمنا ماضيا بأحداثه وأجوائه وشخصيّاته،(17) فظهرت المحطّة الأولى من خلال المقارنة أو تداعي الخواطر، فعندما وقف على الجسر عائدا استدعى عبوره الجسر مسافرا، وخلال جولاته في المدينة بعد عودته استعاد ذكرياته فيها في الستينات، وعندما زار قرية دير غسّانة استعاد صورة القرية وعلاقتها مع المدينة في الستينات.

ظلّ البرغوثيّ محتفظا بصورة المدينة التي نشأ فيها ثمّ حرم من العودة إليها طوال ثلاثين سنة، لا تغيب عن باله ولا تفارقه، فكان عام 1967 هو الحدّ الذي وقف عنده زمنه الأثير بذكرياته الجميلة، ليبدأ بعده مرحلة تخلو من رام الله إلا من خلال الصورة التي احتفظ بها في خياله، وبذلك أصبح الرقم (67) مرتبطا عنده بالهزيمة، ينفر أنّى رآه

---

(11) نجمي، حسن: **شعريّة الفضاء- المتخيّل والهوية في الرواية العربيّة**. ط1. المركز الثقافي العربي: بيروت. 2000م. ص 143

(12) البيطاوي، يوسف ذياب: **الرواية الفلسطينيّة، في الضفة وقطاع غزة 1967- 1993**. ط1. رام الله: وزارة الثقافة الفلسطينيّة. 2009م. ص 120

(13) البيطاوي. ص 121

(14) البرغوثيّ. مصدر سابق. ص 69 - 70

(15) السابق. ص 170 - 173

(16) مرتاض، عبد الملك: **في نظرية الرواية- بحث في تقنيات السرد**. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. 1998م. ص 176

(17) سويدان، سامي: **المتاهة والتمويه في الرواية العربيّة**. ط1. بيروت: دار الآداب. 2006م. ص 23

وإن كان في سياق مختلف "رقم الهاتف، أو باب غرفة فندق، أو لوحة سيّارة"، ورغم المآسي التي تلته لكنه بقى الأكثر مرارة في نفس الشاعر؛[18] فعند هذا التاريخ تجمّد الزمن وتراكمت الهموم، من الشتات والاغتيالات والهزائم المتلاحقة، فبعد هذا التاريخ كما يقول: "أصيبت رزنامتنا بالعطب، وبتراكم الأوجاع طبقة فوق طبقة".[19]

كان من تدبير القدر أن تكون عودته في حزيران كما جاء قرار حرمانه من العودة في حزيران، ممّا حمله على عقد مقارنة بين حزيران العودة وحزيران الهزيمة: "هواء حزيران اليوم، يغلي ويفور كهواء حزيران الأمس"،[20] فكلاهما مشحون بالمشاعر اللاهبة التي فاقت حرارة الجوّ: الحرقة واللوعة بسبب القرار المجحف بحرمانه من العودة، والتحرّق شوقا ولهفة بانتظار ملامسة الأرض ورؤية المدينة.

ولمّا كانت العلاقة بين الزمان والمكان علاقة عضويّة لا انفصال بينهما،[21] فإنّ زمن المدينة أيضا لم يقتصر على التاريخ بل جاء ملتحما مع المكان، وبذلك أصبح الجسر هو "الحدّ الفاصل بين زمنين":[22] فالزمن الذي عاشه الشاعر في الغربة مختلف عن الزمن الذي عاشه أهل المدينة أو القرية في الوطن، ولا يمكن رتق الزمنين معا.[23] وكان هناك تعالق بين الزمان والمكان فظلّ المكان محتفظا بالزمن أيضا، فدار رعد بالنسبة له ليست مكانا فحسب بل هي أيضا زمن.[24]

لم يكن زمن السارد مختلفا عن زمن المدينة في الستينات، لكنّ السارد علق في ذلك الزمن بين الستينات والتسعينات، فعاش حياته محتفظا بمدينته في قلبه، متجرّعا مرارة الهزيمة طوال ثلاثين سنة. أمّا المدينة فعاش أهلها تلك السنوات صامدين مقاومين، ممّا خفّف من وطء الهزيمة عليهم، وجعلهم يتذوّقون طعم البطولة والكرامة، ولا سيّما في سنوات الانتفاضة حين كان كلّ واحد منهم مستعدّا لأن يخسر حياته مقابل رفع العلم الفلسطينيّ على سطح بيت، أو أسلاك الكهرباء في الشارع.[25]

وعاد زمن السارد ليتّحد مع زمن المدينة من جديد في التسعينات، فبعد عودته وجد المدينة تعيش زمنا جديدا لم يكد يعرفه: "رام الله التسعينات وليست رام الله الستينات، لم أكن لأعرف تفاصيلها المستجدّة بدون شروحات الأصدقاء".[26] وفي التسعينات خبا وهج البطولة، واختلطت الأمور، وجرّدت الانتفاضة من مضمونها، وأُشغِل الناس بقضايا جانبيّة.

كان البرغوثيّ يقارن بين حاضر المدينة وماضيها في الستينات، أمّا أهل المدينة فيقارنون بين حاضرها وماضيها قبل (أوسلو) ولا سيّما زمن الانتفاضة التي ما زالت شعاراتها تملأ الجدران؛ فهذه مليحة التي استشهد زوجها وتعبت من الجري للبحث عن أبنائها في المعتقلات في الانتفاضة تصرّح أنّ "أيام الانتفاضة كانت الدنيا أحسن"، وتشكر الله لأنّ زوجها "استشهد في بداية الانتفاضة؛ لأنّهم مسخوها في الآخر".[27]

---

(18) البرغوثيّ. مصدر سابق. ص 206 - 207

(19) السابق. ص 205

(20) السابق. ص 16

(21) البيطاوي، يوسف ذياب. مرجع سابق. ص 119

(22) البرغوثيّ. مصدر سابق. ص 8

(23) السابق. ص 102

(24) السابق. ص 105

(25) السابق. ص 169

(26) السابق. ص 140

(27) ينظر: البرغوثيّ. مصدر سابق. ص 136، 137، 142

ثانيا: البعد المكانيّ

لم يكن عنصر المكان في هذه الرواية تقليديًا هدفه إضفاء الواقعيّة أو الجمال إليها،[28] بل كان له حضور خاصّ أهّله لأن يكون له دور بطوليّ،[29] فقد اعتنى البرغوثيّ برسم صورة دقيقة للمكان في الرواية، ورصد حركته اليوميّة في زمنين مختلفين، منطلقا من لحظة مرجعيّة وهي لحظة عودته إلى رام الله بعد اتفاقيّة (أوسلو)؛ فهي من باب رواية المكان أو الرواية المكانيّة،[30] إلى جانب الأبعاد الأخرى لها.

ونجد البرغوثي في وصفه لفضاء مدينة رام الله يركّز على وصف الشوارع والمنتزهات والأماكن العامّة أكثر من تركيزه على وصف المباني التي ذكرها فاقتصر على وصف واجهاتها الخارجيّة، فلم يصف الأثاث أو نظافة المبنى أو عدد الأدوار في العمارات العالية... بينما في وصف الشارع والساحات ذكر أدقّ التفاصيل، وقارن بين شارع وآخر وما كان عليه وكيف أصبح...

أظهر الشاعر تعلّقه بالمكان مجرّدا من الوجود الإنسانيّ، فرصد صورته الراهنة، والتغيرات التي طرأت عليه، مصحوبا بالحنين إلى ما كان قائما ولم يعد له وجود، مثل المناة التي أزيلت واستبدلت بها الإشارات الضوئيّة،[31] ومنتزه نعّوم الذي أقيمت مكانه عمارة عالية ومحلّات تجاريّة جديدة. فهذه الأماكن عكست قيمة إنسانيّة؛ "فالإنسان قادر على منح الأمكنة والأشياء قيمتها وأبعادها الراهنة والماورائيّة"،[32] وبذلك فإنّ "تغير الأحياء والشوارع والمباني، أو تغيّر المدينة كلّها، يوازي تغيّر القيم والأحلام والتطلّعات".[33]

صورة رام الله التسعينات أصبحت مشوّهة فقد كانت أعلام الاحتلال تملأ الطرق المؤديّة إليها، وتلوح في قمم التلال المحيطة بها، أمّا داخل المدينة فرفّ علم فلسطين على مؤسّساتها وفي شوارعها لكنّها ما زالت مسلوبة السيادة الفعليّة على الأرض؛ فهي مدينة شبه محاصرة رغم كونها مصنّفة (منطقة أ) وهي منطقة الإشراف الفلسطينيّ بمقتضى الاتفاقيّات، لكن الطرق المؤديّة إليه (منطقة ب)، وهي منطقة الإشراف المشترك لكنّ السلطة الفعليّة فيها لجنود الاحتلال،[34] وهم "يمنعون حتّى القيادات من السفر إن أرادوا".[35]

هذا التغيّر في المدينة جعل الشاعر يتّخذ موقفا جديدا منها، وظلّ في وصفه لها مأخوذا بالمقارنة بين الحاضر والماضي. وللوقوف على صورة المكان يمكننا أخذ لوحات لأماكن محدّدة وقف عليها، وهي:

الجسر: لم يكن الجسر جزءا من مدينة رام الله لكنّه المعبر الذي كان يفصله عنها، وبذلك مثّل بعدا مكانيّا وآخر زمانيّا يتعانقان في تشكيل لوحة مشحونة بمشاعر ابن المدينة العائد إليها بعد غياب. فكان الجسر "الخشبيّ، القليل الشأن والأمتار"[36] الحدّ الفاصل بين زمنين: الماضي البريء، والحاضر المرير؛ فهو بوابة الوطن التي خرج منها قبل ثلاثين عاما فأوصدت دونه، وها هي اليوم تفتح له ليعود من جديد، لكنّه لم يعده إلى ذلك الزمن الذي رافقه في غربته بل أعاده إلى زمن آخر، تبدّلت فيه أحوال المدينة.

---

(28) محمد، شعبان عبد الحكيم: **في الرواية العربيّة الجديدة**. ط1. دسوق: دار العلم والايمان للنشر والتوزيع. 2018م. ص 75

(29) السابق. ص 85 - 86

(30) عبد الله، محمد حسن: **الريف في الرواية العربيّة**. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. 1989م. ص 289

(31) ينظر: البرغوثيّ. مصدر سابق. ص 47، 140

(32) صالح، صلاح: **قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر**. القاهرة: دار شرقيّات للنشر والتوزيع. 1997م. ص136

(33) حمودة، حسين: **الرواية والمدينة- نماذج من كتّاب الستينات في مصر**. القاهرة: الهيئة العامّة لقصور الثقافة. 2000م. ص203

(34) البرغوثيّ. مصدر سابق. ص 103

(35) السابق. ص 169

(36) البرغوثيّ. مصدر سابق. ص 15

لهذا الجسر أيضا بعد نفسيّ تاريخيّ فهو بوابة السجن الذي يعيشه الفلسطينيّون في أرضهم، وهو معلم غير إنسانيّ يحول دون لمّ شمل أفراد الأسرة؛[37] فحياة الفلسطينيّ تبقى موزّعة بين حديّ الجسر، وقلوبهم معلّقة به على اختلاف اسمه: جسر العودة، جسر الملك حسين، معبر الكرامة، جسر اللنبيّ، أم الجسر.[38]

ورغم كون الجسر من الأماكن المفتوحة إلا أنّ الكاتب كان يشعر بمرارة وضيق، فبعد أن كان يظنّ أنه لا فارق بين الأرض الأردنيّة التي يقف عليها والأرض الفلسطينيّة على الجانب الآخر من الجسر،[39] بات يؤلمه مرأى جنود الاحتلال على الضفة الفلسطينيّة، وتجرح أعصابه أعلامه المنتشرة على امتداد الجسر.

وقد أتى الاحتلال على معالم الطبيعة المحيطة بالجسر؛ فنهر الأردن أصبح نهرا بلا ماء، "تقريبا بلا ماء". الطبيعة اشتركت مع الاحتلال في نهب مياهه. "كان لمجراه صوت. هو الآن نهر ساكت. كأنّه سيّارة في مرآب".[40] وعلى الجانب الفلسطينيّ تمتدّ تلال جرداء، كأنّ العدوّ غيّر طريق سيّارات الجسر وحوّله إلى هذا الطريق الكالح الذي لا يذكر أنّه سلكه في سنوات الصبا، ما جعله يشعر "بغصّة غامضة وبنوع من الخذلان"،[41] فقد كان يرى أنّ الأرض المحتلّة " لها ألوانها ودرجة حرارتها ولها أعشابها البريّة أيضا"،[42] وها هو يقف عليها ويمسكها بيده، لكنّ لا خضرة فيها ولا ألوان.

شوارع المدينة وأسواقها ومنتزهاتها: يمثّل فضاء الشارع في الرواية التقليديّة الشريحة الاجتماعيّة التي تنتمي إليه، أو يصوّر تصويرا محايدا،[43] لكنه عند البرغوثيّ جاء مطبوعا بالذاتيّة نتيجة لتعلّق السارد بالمكان، فكلّ ما في الشارع والأماكن العامّة كان له ذكرى في قلبه، وقد عبّر عن هذا التعلّق باستخدام ضمير المتكلّم "أماكني"،[44] إذ يرى (باشلار) أنّ جميع الأماكن المأهولة تصبح بيتا للإنسان عندما ترتبط بذكرياته وأحلامه وطموحاته.[45] والبرغوثيّ تعلّق بالمدينة منذ طفولته، ثمّ انتقلت أسرته للسكن فيها في صباه فعاش المدينة بتفاصيلها قبل حرمانه من العودة إليها، فأصبحت المدينة كلّها بيته الشخصيّ، وركنه الخاص الذي ظلّ متعلّقا طوال ثلاثين عاما.

شكّلت شوارع المدينة مكانا مفتوحا ممتدّا بالزمان كما هو ممتدّ في المكان، فرام الله بالنسبة لأهلها هي المباني، والمنتزهات ذات النوافير، وشارع الإذاعة أو شارع العشّاق –كما كان يسمّى- وأشجاره الباذخة على الجانبين، والمطلّ على تلال خضراء تنتهي في الساحل الفلسطينيّ.[46] وهي للسارد الماضي والحاضر والمستقبل، هي تاريخه الذي أراد أن ليستعيده فيها من خلال تلك الأماكن: مدرسته، بوظة ركب، منتزه المدينة ... تلك الصورة التي حفرت في ذهنه لرام الله بطبيعتها وأشجار السرو والصنوبر، ومنارتها، ومطاعمها، وفنادقها، ومساجدها.[47]

---

(37) عدوان، عدوان نمر: **المكان في الرواية الفلسطينيّة بعد أوسلو 1993**. (ر.ج) الجامعة الأردنيّة. 2005م. ص 72 - 74

(38) البرغوثيّ. مصدر سابق. ص 15

(39) السابق. ص 9

(40) السابق. ص 9

(41) السابق. ص 35

(42) السابق. ص 10

(43) الظلّ، حوريّة: **الفضاء في الرواية العربيّة الجديدة**. دمش: دار نينوى. 2011م. ص 82، 84

(44) البرغوثيّ. مصدر سابق. ص 140

(45) باشلار، غاستون: **جماليات المكان**. تر: غالب هلسا. ط2. بيروت: المؤسسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع. 1984م. ص 36 - 39

(46) البرغوثيّ. مصدر سابق. ص 140

(47) السابق. ص 44، 49، 140

وجد الكثير منها ما زال على حاله لم يتغيّر، كالحسبة بصناديق الباعة واليافطات وأرضيتها التي ما زالت "كسطح المستنقع، لزجةً، غامقة اللون، مغطاة بالبقايا والقشور والعفن الملوّن"،[48] وبعض تلك المعالم أزيل أو تغيّر كمنارتها التي استبدلت بها الإشارات الضوئيّة، ومنتزه نعّوم الذي أقيمت مكانه عمارة عالية ومحلّات تجاريّة.

أمّا الشوارع والمنتزهات فما زالت تحافظ على نظافتها كعهده بها،[49] وإنّما أصبحت أكثر ازدحاما، لكنّه لم ينزعج من ذلك الازدحام لأنّه "سنّة التطور وثمن نمو المدينة".[50] كما أصبحت واجهات المباني المطلّة على الشارع الرئيس تشبه أرض الحسبة، وقد علل ذلك بكثرة الشعارات التي كتبت على واجهات تلك المباني.

وهناك الشوارع التي تصل رام الله بالمدن أو القرى المحيطة بها كالطريق بينها وبين الجسر، والطريق إلى القدس، فقد عاد ليفقّد ذكرياته فيها، فالشارع الواصل بين رام الله ودير غسّانة كان يمرّ من بير زيت التي أصبحت مدرستها جامعة مهمة، وحرش النبي صالح، الذي تحوّل إلى مستوطنة.[51]

المباني: تميّزت رام الله في الستينات ببيوتها والحدائق المحيطة بها، وعرفت الفنادق مثل:"عودة"، "حرب"،[52] وعمارات سكنيّة متواضعة الارتفاع مثل "عمارة اللفتاويّ" حيث كانت أسرته تسكن. وفي التسعينات شهدت رام الله نهضة عمرانيّة؛ فهي مركز السلطة الفلسطينيّة الوليدة، ومقرّ الوزارات، والمكاتب التابعة لها، والمؤسّسات الرسميّة،[53] وأصبحت بيوتها مسقوفة بالقرميد المشمشيّ اللون، كما شيّدت بنايات سكنيّة ومراكز تجاريّة جديدة. لكنّ هذه النهضة لم تأت على أصالة المدينة وتراثها، فما زال الكثير من المباني القديمة مجاورا لبنايات جديدة. وهذا التطوّر أحوجه إلى دليل في المدينة، فلم يعرف من تلك البنايات إلا ما كان مجاورا لأماكن سكن أقربائه.[54]

ومن تلك المباني منزل (أبو حازم) الذي استضافه في بيته، ولم يسمح له بالمبيت في فندق. وهو مكان مغلق شعر الكاتب فيه بتقييد الحريّة؛ فقد اضطرّت زوجة (أبو حازم) لأخذ إجازة لتحتفي به،[55] وكان الضيوف يزدحمون فيه للسلام على البرغوثيّ أو وداعه مما سبب له الحرج.[56]

لم يذكر البرغوثيّ من معالم البيت إلا ما يكشف لنا موقفه من المكان؛ فهو مكوّن من طابقين، مناسبة للترقّب، فكما ترقّبت أسرة (أبو حازم) وصوله، فالكلّ الفلسطينيّ يترقّب قرار العودة. وعلى جدار "البرندة" كانت صورة لشقيقه منيف،[57] ليؤكّد على حقّ الفلسطينيّ بالعودة وإن مات في الغربة. ومساحة الغرفة التي يبيت فيها صغيرة تطلّ على مستوطنة، فمنظر المستوطنة هو الذي سبب له الضيق، فهذا الوطن لا يتّسع للفلسطينيّ والآخر، وصغرها منحه خصوصيّة فكانت غرفته مكانا مغلقا عن الآخرين، لكنّها شكّلت له مساحة مفتوحة مطلقة الحريّة؛ فمخدّته كانت "منسوجة من نسيج الحقيقة"، ونافذته تطلّ على أسئلة لا حصر لها.[58]

---

(48) السابق. ص 176

(49) ينظر: السابق. ص49، 141

(50) ينظر: السابق. ص 140 – 141، 173

(51) البرغوثيّ. مصدر سابق. ص 76

(52) السابق. ص 48

(53) ينظر: السابق. ص 58 - 59

(54) السابق. ص 62

(55) السابق. ص 55

(56) ينظر: السابق. ص137 ، 183 ، 192

(57) السابق. ص 41

(58) السابق. ص217 - 219

النافذة: النافذة مكان مفتوح ينقل السارد من الفضاء المحيط إلى فضاء أوسع في الخارج، أو من عالمه الواقعيّ إلى حيث اللامكان للتحليق في الزمن من خلال ذاكرته. وأشارت الباحثة قرمان في دراستها أنّ النافذة كانت عند البرغوثيّ تشكّل مكانا للامتعاض أو الاطمئنان، فكانت تطلّ على المستوطنات فتشكّل الامتعاض للسارد، أو تعيد له ذكر من ماتوا، وأحيانا تشكّل مكانا للراحة يطمئن فيه على سلامة ابنه أو يتأمّل الخضرة والأشجار المحيطة.(59)

وبالرجوع إلى الرواية نجد الحالات التي شكّلت فيها النافذة مكانا للامتعاض كلّها مرتبطة بإقامته في رام الله، بينما ارتبط الاطمئنان بالغربة، وهي في كلا الحالتين ترتبط بموقفه من رام الله ارتباطا وثيقا؛ ففي رام الله كلّما ألقى بصره خارج نافذته تجبهه التغيّرات التي فرضها الاحتلال على المدينة فينكفئ إليه البصر بحسرة ومرارة، وإذا رأى منظر الوطن جميلا يستعيد ذكرى حميمة مع قريب أو صديق قضى في الغربة أو ما زال محروما من العودة فيشعر بالذنب لأنّه انفرد برؤية المدينة دونه.(60)

أمّا النافذة في المنفى فكانت تبعده عن واقع الضيق والحرمان الذي يتجرّعه، فتعيد له ذكرياته في المدينة للتشابه بين منظر الخضرة وصورة مدينته ذات الجوّ الريفيّ، فيتحرّر من قيود المكان ويحلّق بخياله فوق ربوع مدينته، إلى أن يعيده رنين الهاتف إلى الواقع ليذكّره بعجزه وغربته.(61)

المكتبات ودور السينما: استعاد البرغوثيّ صورة لمكتبة صندوقة التي كانت قريبة من عمارة اللفتاويّ في الستينات، حيث كان يحتال على صاحبها ليقرأ الجريدة أو كتابا، وهي إن كانت من الناحية الماديّة مكانا مغلقا فإنّها بالنسبة له مثّلت مكانا مفتوحا مكّنه من الاطّلاع على ثقافة العالم، لكنّ في التسعينات لم يعد لها وجود، وتحوّلت لبيع النثريات بدلا من الكتب.(62)

إلى جانب المكتبات شكّلت دور السينما الثلاث "الوليد" و"دنيا" و"الجميل"(63) عالما مفتوحا له مكّنه في الستينات من معرفة الفنّ المسرحيّ. ولكن في التسعينات كانت دور السينما الثلاث معطّلة، وهي مغلقة الأبواب منذ سنوات طويلة".(64)

ترك حال المكتبات ودور السينما في التسعينات فراغا روحيّافي المدينة، ممّا أدخل السارد في حالة حزن لحال المدينة التي استهدف الاحتلال ثقافتها، وعطّل سير تقدّمها،(65) فقد أغلق الأماكن التي كانت نافذة لسكان المدينة على العالم.

ثالثا: البعد الاجتماعيّ

رام الله مدينة التناقضات، متعدّدة الثقافات، متعدّدة الأوجه،(66) فهي تحتضن أبناءها بدفئها، لكنّها تنساهم إذا ابتعدوا، فـ"القريب منها قريب، والبعيد عنها بعيد".(67) عجلة الزمان فيها لا تقف عند حدّ، طيّعة للتطوّر

(59) قرمان آلاء: **سرديات رام الله في الأدب الفلسطينيّ (فاروق وادي ومريد البرغوثي نموذجا).** (ر. ج) فلسطين: جامعة النجاح الوطنيّة. 2015م. ص 72 - 73

(60) البرغوثي. مصدر سابق. ص 46 - 47

(61) السابق. ص 161 - 162

(62) ينظر: السابق. ص 144، و174 - 175

(63) السابق. ص 48

(64) السابق. ص 144

(65) البرغوثيّ. مصدر سابق. ص 176

(66) السابق. ص 48

(67) السابق. ص 44

والتأثّر الحضاريّ حدّ المغامرة، "ذهبت في طرقها كما قدّر لها أهلها حينا وكما قدّر لها أعداؤها أحيانا"،(68) تعرّضت لمحاولات عديدة لزعزعة قيم المجتمع ومعتقداتهم لكنّها سرعان ما تعود إلى أصالتها.

مجتمع المدينة "رحب وشفّاف، نسيجه مسيحيّ إسلاميّ، تتزيّن بالكريسماس ورمضان، و"لا تعرف أسئلة المذاهب والطوائف والمعتقدات". وهي دائما سبّاقة إلى اللحاق بكلّ ترفٍ جديد"، عرفت الدبكة، والبلياردو، والفن، والسينما،(69) وها هي اليوم تعرف "التلفونات"، و"البليفونات" قبل غيرها من المدن الفلسطينيّة، فالبيلفونات أصبحت علامة ثراء تميّز رجال السلطة في رام الله.(70)

ورام الله لم تكن يوما مدينة ذكوريّة ولا متجهّمة"،(71) ولم تعرف القيود الاجتماعيّة، تمتّع أهلها بالحريّة الشخصيّة، فقد اعتادوا رجالا ونساء على ارتياد المقاهي، وبوظة ركب، ويزدحمون في المنتزهات دون أن تلاحقهم العيون الفضوليّة، وكان الفتيان يتسكّعون في شارع المنارة، ليخطفوا النظرات إلى أسراب الطالبات،(72) لكنّ ذلك لم يشغلهم عن الواجب الوطنيّ، فهم رغم حداثتهم يتابعون أخبار السياسة، وينخرطون في المظاهرات.(73) وكانت العلاقات الاجتماعيّة فيها أشبه بها في الريف، العائلات تعرف بعضها،(74) والأقارب يتزاورون ويتبادلون التهاني في المناسبات، فقبيل النكسة شرع والداه بطلاء شقتهم في عمارة اللفتاويّ استعدادا لعودته بـ"الشهادة"،(75) والأخ الأكبر يحمل مسؤوليّة الأسرة.(76)

وفي التسعينات ما زال الأقارب يتزاورون، فقد كانوا يزدحمون في منزل "أبو حازم" للسلام على الكاتب أو وداعه قبل سفره، ممّا يشعره بالحرج، لكنّ (أبو حازم) وأسرته لم يشعروا بالضيق مطلقا، بل عندما فكّر بالمبيت في الفندق جنّ جنون "أبو حازم" وزوجته معا، واضطرّ للاعتذار منهما.(77) والأسر تحافظ على العلاقات بين الأقارب رغم الشتات، فلا حدود يمكن أن تحول دون التواصل بين أفراد الأسرة الواحدة، فظلّوا يتواصلون عبر الرسائل، ثمّ الهاتف،(78) وكان لهم لقاءات في بلاد الغربة سواء بين المغتربين أنفسهم، أم بين المغتربين والمواطنين، ولم تنجح الحدود أو القيود التي يفرضها العدوّ على حركتهم في التفريق بينهم.(79)

لكن بعد تجمّع العائدين في المدينة بدأت رام الله تتّخذ صفات المدن بوصفها ملتقى الغرباء بالتدريج، البعض اختار الإقامة فيها لطراوة مناخها، أو لبوادر الليبراليّة التي تلوح في الأفق، أو لقربها من القدس.(80) لكنّ الغرباء فيها ليسوا غرباء؛ إنّهم الأبناء الذين أصابتهم الغربة، وأبناء القرى المحيطة، وأبناء المدن المحتلّة منذ النكبة،

(68) السابق. ص 44

(69) السابق. ص 48، 141

(70) السابق. ص 131

(71) السابق. ص 48

(72) ينظر: السابق. ص 47، 48 ، 173

(73) السابق. ص 49

(74) السابق. ص 177

(75) البرغوثيّ. مصدر سابق. ص 6

(76) السابق. ص 135

(77) السابق. ص 137 - 138

(78) السابق. ص 131، 152

(79) السابق. ص 166 ، 178

(80) السابق. ص177

والعائدون الذين اجتمعوا فيها كونها مركزا للسلطة الفلسطينيّة، فيها التقى البرغوثي "أبو ساجي" صديقه من أيام بيروت،(81) وعددا من الأدباء الفلسطينيّين(82).

وبذلك أصبحت العلاقات الاجتماعيّة فيها خارج نطاق الأسرة محدودة، وتقتصر المعرفة في حدود العمل، ولا أحد يكترث لحال الآخرين أو خلفياتهم الفكريّة؛ فهم يعرفون عيادة الدكتور لكنّ أحدا لا يعرف بيته، والسيّدة كانت تعرف فدوى البرغوثي التي عملت معها لكنّها لا تعرف موقع البيت،(83) وأبو الحبايب الذي كان يتجوّل في شوارعها بمعطفه الانجليزيّ الملامس للأرض بائعا "الجرايد" لا يعرف أحد شيئا عن حياته أو أصله،(84) والبرغوثيّ نفسه كان يرى أنّ مكانه فيها سواء أكان مؤيّدا أم معارضا.

تلك المعرفة المحدودة لم تغيّر الكثير من طباع أهلها الريفيّة، وما زالت النخوة والرغبة في مساعدة الغريب تسود بين أهلها، فما أن أدرك ركّاب السيارة التي أقلّته من الجسر إلى رام الله أنّه غريب حتى بادروا لمساعدته في البحث عن العنوان الذي كان يقصده.(85) وكانوا يتمسّكون بقيمة إكرام الضيف والاحتفاء به، وتقديم أفضل الطعام له في أفضل الأواني لديهم.(86)

في الستينات اتّسمت حياة الناس في المدينة بالبساطة، والدخل المحدود دون أن يرافق ذلك تذمّر من الحياة أو نقمة عليها، بل كانوا يتكيّفون مع أوضاعهم؛ فعشاء العائلة متكرّر، وغاية السعادة عند الشباب في "ساندويشات الشاورمة" التي يلجأون إليها لتجنّب عشاء الأسرة.(87) أمّا المشاريع الكبيرة من بناء وإعمار فهي تعتمد على المساعدات من أبنء المدينة المغتربين، ورجال الأعمال العرب.(88)

وعرفت رام الله المؤسّسات الاجتماعيّة قبل قيام السلطة، وكان لتلك الجمعيات دور في سدّ احتياجات العديد من الأسر الفقيرة أو المتعفّفة سواء بتقديم المساعدات أو توفير فرص العمل، كالنشاط الذي تقوم به جمعيّة إنعاش الأسرة التي أسّستها أم خليل قبل النكسة، وما زالت تمارس نشاطها إلى الآن، وهي جمعيّة تنظّم توزيع المساعدات التي لا يبخل بها الأثرياء، إلى جانب توفير فرص عمل لأبناء الشهداء والأسرى وبناتهم من أشغال يدويّة ونحوها.(89) وكان حبّ العلم فطرة غرستها الأسرة في نفوس أبنائها، ففي الستينات كان الفتى على استعداد للتضحية بوجبته الشهيّة لتوفير ثمنها في شراء كتاب جديد.(90)

أمّا في التسعينات فبدأت المدينة تشهد أزمة ثقافيّة؛ فالمكتبات أزيلت أو تحوّلت لبيع النثريات بدلا من الكتب، و"دور السينما الثلاث معطّلة ومغلقة الأبواب منذ سنوات طويلة"، بل إنّ بائع الصحف (أبو الحبايب) قتل

---

(81) السابق. ص 58

(82) السابق. ص 137 ، 183

(83) السابق. ص 40

(84) السابق. ص 50

(85) البرغوثيّ. مصدر سابق. ص 40

(86) السابق. ص 56

(87) السابق. ص 175

(88) السابق. ص 61

(89) السابق. ص 138 - 139

(90) السابق. ص 174 - 176

بشظيّة أمام عمارة اللفتاويّ.(91) والكاتب يعزو هذا الوضع للعدوّ الذي يستهدف الثقافة، ويشغل الناس بهموم حياتهم اليوميّة.(92)

أمّا الأدباء في المدينة فهم يعيشون في عزلة عن الثقافة العربيّة والعالميّة لغياب فرص الاحتكاك بالكتّاب العرب عموما، والكتب والدواوين التي تصلهم ممّا يطبع خارج البلاد قليلة.(93) وتمّ منع العديد من الكتب والمجلّات والجرايد التي تصدر في البلاد.(94) وممّا بات يهدّد الثقافة أيضا ذاك التداخل اللغويّ بين العربيّة والعبريّة؛ فلوحات السيّارات مختلفة بين رموز وحروف عربيّة وأخرى عبريّة، والكتابة على إشارة المرور باللغة العبرية فقط.(95)

وبعد قيام السلطة بدأت ظاهرة الثراء تنتشر في المدينة، وبدأ الناس بالحديث عن "العمولات التجاريّة، والكسب المبالغ فيه، وعن مظاهر الفساد الاقتصاديّ المرافق لعمليّات إعادة التعمير والبناء".(96)

ونجد في الرواية مقارنة بين جيل الستينات وجيل التسعينات، ففي الستينات كان الأباء لا يظهرون عواطفهم تجاه الأبناء، ولا يوجد حوار متبادل بين الطرفين. أمّا في التسعينات فالعلاقة تكون أقرب إلى الصداقة،(97) وأطفال الانتفاضة أكثر جرأة وصلابة من أطفال الستينات، وأقلّ تحفّظا وارتباكا، وهم يتبادلون الحديث مع الكبار في السياسة، ويميلون إلى العنف لكنّهم بسطاء طيّبون يكنّون الاحترام للكبير.(98)

ولعلّ أبرز السمات في رام الله هو تنوّع شرائح المجتمع، وهم غالبا ينقسمون إلى ثنائيّات فرضتها الأحداث التي تعرّضت لها المدينة، وقد لجأ الكاتب إلى توظيف تلك الثنائيّات الضديّة في سياق المفارقة والسخرية من انقلاب الأحوال وتبدلّها؛(99) فهناك: أبناء البلد والمهاجرون أو اللاجئون، فالمهاجرون رغم إقامتهم في المدينة كغيرهم من أبناء المدن المجاورة إلا أنّهم حملوا اسم المهاجرين أو اللاجئين،(100) ولم ينسبوا إلى البلدات التي هجّروا منها، أمّا أبناء المدن الأخرى فنسبوا لتلك المدن مثل "مليحة النابلسيّة" جارتهم في العمارة.(101)

ظهر حديثا ثنائيّة جديدة: المقيم والعائد، وبات النقاش الذي يشغل الناس في التسعينات هو "موضوع العائد والمقيم"،(102) فهؤلاء العائدون شغلوا الوظائف المرموقة في الوزارات والسلطة، أمّا المقيمون فاستلموا وظائف أقلّ شأنا: "في إحدى الوزارات رأيت معظم المدراء القادمين من الأيّام التونسيّة أو البيروتيّة، وعندما جاء الساعي بفناجين الشاي والقهوة قدّمه أحدهم بالقول: إنّه من أسود الانتفاضة الذين دوّخوا الاحتلال!".(103)

---

(91) السابق. ص 50

(92) السابق. ص 145

(93) البرغوثيّ. مصدر سابق. ص 142

(94) السابق. ص 174

(95) السابق. ص 37

(96) السابق. ص 143

(97) السابق. ص 188

(98) السابق. ص 189 - 191

(99) العواودة، زين العابدين محمود: ***البنية الدلاليّة لخطاب السيرة الروائيّة الفلسطينيّة المنجز بعد أوسلو/ سرديّة "رأيت رام الله" و"ولدت هناك ولدت هنا" للأديب مريد البرغوثيّ نموذجا***. مجلة الجامعة الإسلاميّة للبحوث الإنسانيّة. م 20. 2012م. ص 153 - 156

(100) البرغوثي. مصدر سابق. ص 50

(101) السابق. ص 136

(102) البرغوثيّ. مصدر سابق. ص 59

(103) السابق. ص 61

وقد تطوّرت العلاقة بين العائدين وبعض المقيمين، وتحولت أحيانا إلى خصومات، فالعائدون يريدون أن يقيموا في بيوتهم، والبيوت مسكونة من الأبناء أو الأحفاد، بل إنّ بعض المقيمين اغتصب حقّ قريبه العائد كشقيقة أبي باسل الذي سجل بيته وأرضا له باسمها أثناء عمله في السعودية، وعندما حصل على لم شمل وعاد اكتشف أن شقيقته سجلت البيت والأرض باسم أبنائها هي، ولم يجد لنفسه مكانا يقيم فيه، مما جعل الضغائن تتزايد بين أفراد العائلة الواحدة هذه الأيام.(104)

ورغم الامتيازات التي تمتّع بها العائدون، ولا سيّما من كانوا ضمن شريحة رجال السلطة، فإنّهم ظلّوا يشعرون بالذنب تجاه من حرموا من هذه العودة، ممّن مات منهم غريبا أو من زال ينتظر العودة الكبرى، فلم تغب صورة شقيق الكاتب عن باله عند عبوره الجسر، وكانت صورة شقيقه وصورة غيره ممّن اغتالتهم يد الغدر أو الموت في الغربة تراوده طوال الوقت ولا سيّما في ليلته الأخيرة في رام الله قبل السفر.(105)

كما فرض الوضع الجديد ثنائيّة أخرى: المواطن والمسؤول أو رجل السلطة، وكان رجال السلطة يثيرون استفزاز المواطنين بامتيازاتهم؛ فهم يركبون السيّارات الثمينة، ويبنون أو يستأجرون المنازل الفارهة، التي لا يستطيع المواطن العادي أن يتملّك مثلها، ويحملون هواتف متنقّلة لم يكن المواطن يعرفها في ذلك الوقت، فأصبح "البيلفون" عنوان الثراء في التسعينات وهو حكر على رجال السلطة.(106)

ومن ثنائيّات المجتمع في المدينة انقسم المثقّفون إلى مؤيّدين ومعارضين، وتشابها في لعب الدور الوطنيّ،(107) وتردّد البعض بين التأييد والمعارضة، فكانوا يتقلّبون في الفكر والمواقف وفق ما تمليه مصالحهم الشخصيّة،(108) ممّا خلق حالة من الفوضى والتشتت الفكريّ. وقد تماهى المثقّفون غالبا مع السلطة فمارسوا الاستبداد الثقافيّ؛ فهم دائما على حقّ، ويرفضون النقد، لا ينازَعون في مواقعهم أو أفكارهم.(109)

وفي المجتمع ثنائيّة أخرى هي الوطنيّون مقابل العملاء أو المتعاونون،(110) فلا أحد محايد في المدينة، إمّا أن يكون وطنيّا يدافع عن الوطن أو متعاونا مع العدوّ ضدّ أبناء الوطن. وفي الإطار الوطنيّ ينصهر الناس جميعا: ابن البلد واللاجئ، المقيم والعائد، المثقّف والعاميّ، ورجل السلطة والمواطن... فجميعهم ضحايا الاحتلال، و"الكلّ عرضة للموت أو الإصابة، أو الإهانة على الحدود، أو فقدان ما يحبّ ومن يحبّ"،(111) تختلف الإديولوجيّات وتفترق، لكنّها عند الوطن تلتقي من جديد.(112) وكلّ شخصّ في المدينة غير العملاء مستعدّ للتضحية والفداء.

صورة المرأة: تمثّلت صورة المرأة بالدرجة الأولى في شخصيّة كلّ من والدته، وفدوى البرغوثيّ، وأمّ خليل، إلى جانب الشخصيّات النسائيّة التي تعامل معها أو ذكرها، وبدت المرأة في المدينة مثقّفة واعية، تحبّ العلم، منفتحة على العالم، تتمتّع بالحريّة الاجتماعيّة حيث تخرج للعلم والعمل دون قيود، وتحظى باحترام الجميع.

---

(104) السابق. ص 126 - 127

(105) السابق. ص 195 - 204

(106) السابق. ص 131 - 132

(107) السابق. ص 146 - 147

(108) البرغوثيّ. مصدر سابق. ص 150 - 151

(109) السابق. ص 149

(110) السابق. ص 143

(111) السابق. ص 149

(112) ينظر، السابق. ص 173

فهي أمّ تحرص على نجاح أسرتها؛ فتشرف على بناء البيت، وتدبير أموره، وتزرع في حديقتها الصغيرة، وتهتمّ لأمر أبنائها، وتوزّع عليهم الحبّ والحنان، وتجتهد في غرس محبّة للعلم في نفوس أبنائها حتّى وإن حرومت منه، كموقف والدته التي كانت تريد لهم أن يحقّقوا كلّ ما عجزت هي عن تحقيقه لنفسها،(113) وقد تبالغ في رعايتهم والدفاع عنهم الأمر يجعلها تحرمهم من المغامرة كركوب "البسكليت".(114)

وهي زوجة تساعد زوجها في تأمين دخل للأسرة من خلال عملها إلى جانب اهتمامها بالبيت؛ ففدوى عضو في جمعيّة الهلال الأحمر.(115) ولم يكن دورها الوطنيّ يقلّ عن ذلك، كدورها في الانتفاضة الذي لم يكتب بعد،(116) بل لقد شاركت الرجل في العمل السياسيّ، كأمّ خليل التي رشّحت نفسها مقابل الرئيس ياسر عرفات في الانتخابات الأولى لرئاسة السلطة الوطنيّة الفلسطينيّة.(117) وهي سيّدة مجتمع تشارك في النشاط الاجتماعيّ فأمّ خليل أنشأت جمعيّة إنعاش الأسرة قبل النكسة، وما زالت ترأسها حتّى التسعينات ما يدلّ على نجاح المرأة في عملها وإدارتها.

في المدينة تمتّعت المرأة بحريّتها، فأبواب التعليم مفتوحة أمام الفتيات في مدارس رام الله،(118) وفي الجمعيّة كانت الفتيات يعملن إلى جانب الفتيان، فيتعلمون كيف يعيلون أسرهم على السواء.(119) وهي تلتحق بمراكز تعليم الكبار، ومن ذلك التحاق والدته بالتعليم بعد الخمسين من العمر، بسبب حرمانها منه في طفولتها حين كانت تعيش في الريف، وكانت تشبّه معاناتها من أجل التعليم بمعاناة الشاعرة فدوى طوقان.(120)

صورة الآخر: لا تهدف هذه الدراسة إلى الوقوف على صورة الآخر عند البرغوثيّ، بل تكتفي بالقدر الذي انعكست فيه صورة الآخر على المدينة، أو ترك حضوره أثرا في موقف البرغوثيّ منها.

تتمثّل صورة الآخر في صورة جنود الاحتلال على الجسر، وصورة المستوطنين المحيطين بالمدينة، وقد أعلن البرغوثيّ منذ اللحظة الأولى رفضه للآخر، فلا سبيل إلى التوافق أو الحديث بلغة مشتركة، ولم يكن مستعدّا للتفاهم معه: "لم أستطع التأكّد من مشاعره. وجهه لا ينبئ بما يفكر فيه. نظرت إليه كالناظر إلى باب مغلق".(121)

وجاءت هذه الصورة من باب المقارنة بين الفلسطينيّ والآخر؛ فغرفة جنديّ الاحتلال على الجسر استدعت صورة مكتب الشهيد غسان كنفانيّ في بيروت: مكتب كنفانيّ كان يتسّع لثقافة العالم، وغرفة الجنديّ فيها مناظر من فلسطين مجرّدة من مضمونها،(122) الفلسطينيّون أصحاب الثقافة والانفتاح على العالم لكنّ أرضهم محرّمة عليهم، أمّا الجنديّ فمراهق لا يعنيه إلا الاستيلاء على خيرات فلسطين، ومصادرة حقوق أهلها. ومع ذلك فهو صاحب السيادة على الأرض، وإن لم يكن جديرا بهذا الوطن أو له فيه حقّ.

وأدرك منذ اللحظة الأولى التمييز بين المستوطنين والفلسطينيّين على الأرض؛ فالشوارع المؤدية إلى المستوطنات كانت "أكثر سعة ونعومة وأناقة وبريقا"(123) من تلك المؤدّية إلى القرى والمدن العربيّة.

---

(113) السابق. ص 120 - 123

(114) السابق. ص 135

(115) السابق. ص 55 - 56

(116) السابق. ص 142 - 143

(117) البرغوثيّ. مصدر سابق. ص 135

(118) السابق. ص 116

(119) السابق. ص 138 - 139

(120) السابق. ص 120

(121) السابق. ص 17

(122) السابق. ص 22

(123) السابق. ص 37، 43

وطبيعة العلاقة بين الطرفين مبنيّة على الرفض والخوف، فابن المدينة لا يجهل عدوّه بل يعرفه معرفة واضحة، أساسها تاريخ بداية اعتدائهم على الأرض وحربنا معهم: "هذا الجنديّ ذو القبّعة ليس غامضا على الإطلاق. على الأقل بندقيّته شديدة اللمعان. بندقيّته هي تاريخي الشخصيّ. هي تاريخ غربتي".(124) وفي المقابل فإنّ الجنديّ لا يواجه أبناء الوطن دون سلاحه.

وموقف الرفض للآخر-الذي لم يكن يشاهده قبلا إلا على التلفاز- جعله يجرّده من السمات الإنسانيّة؛ فلم يكن قادرا على تخيّله بشرا يعيش حياته اليوميّة كما يعيشها أبناء فلسطين، أو أنّ أطفاله يلعبون الكرة وراء تلك الأسوار. ولمّا اقترنت صورة المحتلّ في ذهنه بالسلاح، فقد كان يتخيّلهم يعلقون الرشاشات معبّأة وجاهزة على جدران غرفة النوم.

ولكن في التسعينات باتت الصورة مختلفة فها هو جندي الاحتلال اليوم يقف أمام الضابط الفلسطينيّ دون استعداد، وكلاهما يدير المعاملات وفق ترتيبات متفاهم عليها، وأدرك أنّ القرار النهائيّ على الجسر هو للآخر؛ فهو صاحب السيادة الحقيقيّة. أمام هذا الواقع بدأ البرغوثيّ يشكّ في مدى خوف الآخر من الفلسطينيّ: "هل يخافون منّا حقّا أم نحن الذين نخاف؟"،(125) وهذا سبّب له صدمة جعلته يرفض حال المدينة اليوم، ولا سيّما بعد أن تكرّس هذا الوضع على الحواجز، وبعد أن وجد أعلام العدوّ تحاصر المدينة.

رابعا: البعد السياسيّ

تمثّل المدينة في الفكر السياسيّ "حاضرة الاجتماع البشريّ، ومكان الحاكم، ومنشأ السلطة(126)، وميدان التجارة والمعاش"، وهو الحال التي كانت عليه رام الله في التسعينات، لأنّها أصبحت تقوم بدور العاصمة نيابة عن القدس، ولكنّ رام الله ما زالت تحت الاحتلال تعاني ما تعاني منه سائر المدن الفلسطينيّة، ولذا فقد سار البعد السياسيّ في هذه الرواية في اتّجاهين: سياسة الاحتلال، وسياسة رجال السلطة.

أ- **سياسة الاحتلال:** شكّل الوضع السياسيّ صدمة كبيرة عند الشاعر، كيف لا وقد "فتحت لنا بوابة المنفى من الجهة العجيبة! من الجهة التي تفضي بنا إلى البلد لا إلى "البلاد"... بلاد الآخرين"،(127) فلم تحقّق تلك العودة الحلم الذي طالما راوده بالرجوع إلى وطنه، ولم تعد البلاد كما كانت في سابق عهدها، فالبلاد للآخر هو الذي يقرّر من الذي يعود ومتى، أمّا نحن فلنا بلدات نقيم في أجزاء منها، وفق قانون الآخر.

تلك الحقيقة التي نغّصت عليه عودته، فأوّل ما بدا له من الجسر على الطرف الآخر جنديّ صهيونيّ: "هذا أوّل جندي اسرائيليّ يطلّ بقبّعة المتدينين... بندقيّته تبدو لي أطول من قامته"،(128) فيثيره انقلاب الأمور: فكيف سلب العدوّ الأرض وأمسى يحرسها من أهلها؟!(129)

ثمّ يصف ضبّاط الارتباط الفلسطينيّين على الجسر، حيث يمارسون دورا رسمته لهم المفاوضات، فكانوا أشبه بممثلين يقومون بدور مسرحيّ، وفق سيناريو محدّد "هنا رأيت الشرطة الفلسطينيّة والشرطة الإسرائيليّة"،(130)

---

(124) البرغوثيّ. مصدر سابق. ص 19

(125) السابق. ص 46

(126) عرفة، عبد القادر: **المدينة والسياسة- دراسة في (الضروري في السياسة) لابن رشد**. ط1. القاهرة: مركز الكتاب للنشر. 2006م. ص 93

(127) البرغوثيّ. مصدر سابق. ص 29

(128) البرغوثيّ. مصدر سابق. ص 17

(129) السابق. ص 20

كان كلّ منهما يرسله إلى الآخر، وهذا أذهله ولم يجد له جوابا، عندما جلس أمام الضابط الفلسطينيّ، بقي صامتا، وكان الضابط كذلك صامتا: "كنّا اثنين في الغرفة. وكان كلّ منّا وحيدا".(131)

أمّا السلطة الحقيقيّة على الجسر فهي لضبّاط العدوّ: "كلّ الإجراءات الأمنيّة والجمركيّة والإداريّة من اختصاصهم هم"،(132) رفعوا أعلامهم على جميع نقاط الحراسة،(133) "أنظر من نافذة الباص فأرى أعلامهم تبدو وتختفي على نقاط الحراسة المتكرّرة. بعد كلّ بضعة أمتار، تظهر أعلامهم!".(134) أمّا نفوذ السلطة الفلسطينيّة فكان منحصرا في استراحة أريحا فهناك فقط "ترتفع الأعلام الفلسطينيّة وحدها".(135) وما أن غادر الاستراحة حتى شاهد أعلام الكيان الصهيونيّ ترتفع على المستوطنات: "ما هذا العلم...؟ ألم ندخل "مناطقنا" منذ فترة؟ هذه هي المستوطنات إذا!"(136) فدور الجنود لا يقتصر على فرض سلطتهم على الجسر، بل ما زالت السلطة الحقيقيّة في البلاد كلّها لهم: "وفي الترتيبات التفاوضيّة الأخيرة خرجوا من منازلنا لكنّهم يواصلون احتلال الطرقات المؤديّة إليها. ولهم الحقّ في إيقافك على الحواجز الأمنيّة الكثيرة، وعليك الانصياع".(137)

فالاحتلال ما زال يتدخّل في حياة الفلسطينيّن كلّها، يغلق أيّة منطقة يريدها في أيّ وقت يشاء، وينصب الحواجز بين المدن، وما زالت عشرات المستوطنات تعلو التلال في مناطق السلطة الفلسطينيّة، ترتفع أعلام الاحتلال على مداخلها، سواء في طريقه من الجسر إلى رام الله أم بين رام الله ودير غسّانة.(138)

ب- **سياسة السلطة الوطنيّة الفلسطينيّة:** رام الله مقرّ السلطة ومؤسّساتها، لكنّها سلطة شكليّة تمارس "سيادة كاريكاتيريّة":(139) ففي مراكز الخدمات التابعة لوزارة الداخليّة كان الموظفون يؤدون خدمات روتينية من استلام الطلبات، والتأكد من سلامة المعاملات... لكنّ القرار النهائيّ والتنفيذ الحقيقيّ لسلطة الاحتلال.(140)

الناس في مدينة رام الله يعيشون في حالة تخبّط سياسيّ فهم مع هذا الحلّ وضدّه، صوّتوا لعرفات أملا في تحقيق الوعود التاريخيّة التي أقسمت عليها الثورة، وهم في حالة انتظار لتحقيقها،(141) فلم تلق هذه السلطة الوليدة القبول بعد من أبناء المجتمع لأنّ "نظام العلاقة بين السلطة الجديدة والشعب ما يزال نظاما شفويّا"،(142) والناس يتحدّثون "عن محاكمات منتصف الليل الشفويّة التي تقوم بها أجهزة الأمن الفلسطينيّة"،(143) كما بدأوا بالحديث الفساد الإداريّ والاقتصاديّ الذي رافق مشاريع إعادة إعمار المدينة.(144)

---

(130) السابق. ص 26

(131) السابق. ص 27

(132) السابق. ص 28 وينظر: ص 169

(133) السابق. ص 30

(134) السابق. ص 31

(135) السابق. ص 34

(136) السابق. ص 36

(137) السابق. ص 39

(138) ينظر: السابق. ص 37 ، 59، 103

(139) البرغوثيّ. مصدر سابق. ص 150

(140) السابق. ص 59

(141) السابق. ص 144

(142) السابق. ص 59

(143) السابق. ص 143

(144) السابق. ص 143

ففي رام الله تغيّرت صورة الفدائيّ البطل، الذي يستحقّ التمجيد والتعاطف، وأصبح هذا الفدائيّ مكبّلا بالشروط ولا سلطة له إلا على المواطن العاديّ، فهو يدير شؤونهم كلّها، حتى الاعتقال والسجن والمقاضاة والتعذيب على خلفيّات سياسيّة، وفي الوقت نفسه لا يستطيع حماية المواطن أو الدفاع عنه؛ فهو مجرّد السيادة الحقيقيّة على الأرض، ممّا زاد حنق الشعب ورفضه لهذا الدور الذي يقوم به.(145)

في رام الله التسعينات نجحت السلطة الوليدة في استقطاب المثقّفين، فارتاحوا على مقاعدها، وانشغلوا عن هموم الناس، وانغمس بعضهم بالفساد.(146) وكانت الإذاعة و"تلفزيون فلسطين" التابعان للسلطة لا يعرفان إلا السعادة والاحتفال بالنصر،(147) وخارجهما لا أحد يرى النصر، أو يجد ما يستحقّ الاحتفال إلا المستفيدين،(148) وهذا شكّل فجوة بين والشعب المؤسّسة الإعلاميّة الرسميّة التي لم تستطع ملامسة الواقع أو التعبير عن هموم المواطن وطموحاته.

بل إنّ معاناة أبناء المدينة مستمرّة جرّاء الوضع السياسيّ خارج البلاد، لعدم الاعتراف بالسيادة الفعليّة التي يمنحها جواز السفر الفلسطينيّ الذي بدأت السلطة بإصداره بعد "أوسلو"، ولم تشفع لهم جوازات السفر المؤقّتة الممنوحة من الدول الأخرى، فضلا عن عجز السلطة الفلسطينيّة عن إصدار جوازات فلسطينيّة للمغتربين منهم.(149)

رام الله ودير غسّانة:

مثّلت دير غسّانة صورة الريف في "رأيت رام الله"، وحتّى تكتمل أبعاد صورة رام الله لا بدّ من الوقوف على صورة الريق؛ نظرا لطبيعة العلاقة بين الريف والمدينة في الرواية عموما التي تقوم عادة على مواجهة تتمثّل في "الهجاء المتبادل وانعدام الثقة، اللذين يؤديان إلى صعوبة الاندماج إذا ما انتقل طرف إلى الموقع الآخر"،(150) فابن الريف يشعر بالدونية عند انتقاله للمدينة، أمّا ابن المدينة فيشعر بفوقيّة تميّزه عن أهل الريف، وذهابه إلى الريف نوع من التنازل.(151)

هذه الفجوة الواسعة بين الريف والمدينة سببها ميراث طويل من العزلة، والاستعداء، والاستعلاء يعود إلى العصر الإقطاعيّ، خاصة في الوطن العربيّ حيث لم يكن الإقطاعيّ عربيّا، ممّا زاد من حدّة الصراع.(152) وما زال أبناء الريف ينظرون إلى المدينة على أنّها مقرّ السلطة المرادفة للتحكّم، والظلم، ومقرّ السجن...(153)

وعلى النقيض من ذلك كانت العلاقة بين الريف والمدينة في هذه الرواية على قدر من الانسجام والتوافق، وإن كان هناك اختلافات بارزة على الصعيد الاجتماعيّ، لكنّها لم تصل حدّ العداء أو القطيعة.

ومن تلك الاختلافات طبيعة الحياة بين الريف والمدينة؛ فأهل الريف بسطاء رغم كونهم يملكون مساحات شاسعة من الأرض إلا أنّ مظاهر الحضارة والرفاهية لا تعنيهم،(154) فهمّهم الأعلى الحفاظ على الأرض، ويجدون شراء الزيت من الغريب مذلّة،(155) وشراء التين جنون،(156) أمّا أهل المدينة فيشترون الزيت من القرية دون تحفّظ.

---

(145) السابق. ص 150

(146) السابق. ص 148 - 149

(147) السابق. ص 145 - 146

(148) السابق. ص 168

(149) البرغوثيّ. مصدر سابق. ص 166 - 167

(150) عبد الله، محمد حسن. مرجع سابق. ص 180

(151) السابق. ص 183 - 185

(152) عبد الله، محمد حسن. مرجع سابق. ص179

(153) السابق. ص 180

ومنها النظرة إلى المرأة، فالمرأة أكثر حريّة في المدينة؛ تخرج للتعليم، وترتاد المنتزهات، وتدير المؤسّسات... أمّا في الريف فالمجتمع ذكوريّ، وهم يفضّلون الذكور على الإناث،[157] والرجل هو الذي يحمل مسؤوليّة الأسرة، ويتّخذ القرارات،[158]أمّا المرأة فعليها أن تلزم البيت ما أن تبلغ سنّ البلوغ،[159] فلا اختلاط في مجتمع الريف.

لكن تلك الاختلافات لم تكن تصل إلى حدّ العداء أو القطيعة، فكانت رام الله مركزا تجاريّا للأرياف القريبة منها، يبيعون فيها الزيت والزيتون، ويودعون أموالهم في بنوكها، وكان الباص ينطلق في الصباح الباكر إلى المدينة ويعود مساء حاملا من يسافر منهم لقضاء شؤونه، وكانت المدينة تهتمّ بأحوال أهل الريف كتقديم إحدى مدارس المدينة منحة لطالبتين من دير غسّانة لتشجيعهما على التعليم.[160]

ولعلّ خير دليل على ذلك الانسجام بين الريف والمدينة التكيّف المباشر للبرغوثيّ مع المدينة عند انتقاله إليها مع أسرته، بل جعل ذلك الانتقال حلما تحقّق دون أن يشكّل له صدمة أو مفارقة تستحقّ الذكر، وبقي على وفاق وانسجام مع المدينة وهو ابن الريف دون أن تنسيه المدينة حياته في الريف؛ وظلّت صورة قريته حاضرة بأشخاصها، وأحداثها، وأماكنها إلى جوار صورة المدينة، بل كان يطمح أن يحفر صورة لتلك القرية في ذاكرة ابنه الذي ولد ونشأ في الغربة بعيدا عنها.

موقف البرغوثيّ من مدينة رام الله

اختلفت طرق تناول المدينة في الأدب باختلاف ثقافة الكاتب، ومستواه التعليميّ، والاجتماعيّ، والاقتصاديّ، وطبيعته النفسيّة التي ينظر من خلالها إلى البيئة، وكيفيّة تعامله معها إيجابيّا أو سلبيّا.[161] وفي فلسطين اختلف موقف الروائيّ عن غيره من الكتّاب في الوطن العربيّ أو العالم؛ فعلاقة الإنسان بالمدينة عند الروائيّ الفلسطينيّ هي علاقته بالمكان الموصِل إلى الوطن، فكان موقفه من المدينة يتغيّر تبعا لتغيّر موقف المدينة؛ فإذا كانت المدينة جزءا من الوطن فإنّ العلاقة تكون حميمة غالبا، قد يتخلّلها بعض النقد أو الرفض لكنّها لا تحمل العدائيّة أو الرفض المطلق؛[162] فأبناء المدن المحتلّة "لا يستطيعون السخرية منها"،[163] وتبقى علاقة الأديب بالمدينة "علاقة خاصّة، استثنائيّة في آن واحد، إذ مهما ابتعد لا بدّ أن يعود إليها".[164]

ورام الله مدينة استثنائيّة بطبيعتها وموقعها ومعالمها، تعانق الأصالة فيها الحداثة، وفيها يمتدّ الربيع ليزاحم الصيف الخجول، وتجمع فوضى المدن مع هدوء البراري،[165] وهي المدينة التي أحبّها الشاعر بجوارحه وجعل من أماكنها أيقونات جمال لم يجد ما يوازيها في مدن العالم، فظلّت تسكنه ولم يتوقّف عن الحنين إليها في غربته.

---

(154) البرغوثيّ. مصدر سابق. ص 66

(155) السابق. ص 70

(156) السابق. ص 71

(157) السابق. ص 119

(158) البرغوثيّ. مصدر سابق. ص 117، 119

(159) السابق. ص 116 - 117

(160) ينظر: السابق. ص 69، 70، 75، 116

(161) البيطاوي. مرجع سابق. ص 119

(162) عودة، علي محمد: **الزمان والمكان في الرواية الفلسطينيّة 1952 – 1982**. ط2. (د.م)مكتبة دار الحياة. 1997م. ص 198 - 199

(163) البرغوثيّ. مصدر سابق. ص 172

(164) منيف، عبد الرحمن: **الكاتب والمنفى هموم وآفاق الرواية العربيّة**. ط1. بيروت: دار الفكر الجديد. 1992م. ص 110

(165) البرغوثيّ. مصدر سابق. ص 46

نشأت العلاقة بين البرغوثيّ ومدينته منذ الطفولة فبينما كان يعيش في القرية، ظلّ مأخوذا بجمال المدينة، ويحلم بالعيش فيها: " ألم نكن نتمنّى حياة المدينة ونحن في القرية؟ ألم نكن نتمنّى الخروج من دير غسّانة، المحدودة، الصغيرة، الأبسط من اللازم، إلى رام الله والقدس ونابلس؟ ألم نكن نتمنى لتلك المدن أن تصبح مثل القاهرة ودمشق وبغداد وبيروت؟".[166]

أصيب البرغوثيّ بحالة إحباط بعد حرمانه من العودة إلى مدينته، فاختلّت علاقته بجميع الأماكن، فكان "يتعلّق بها وينفر منها في الوقت نفسه"،[167] ولذلك كانت عودته إلى رام الله مفعمة بشوق، لا يخلو من القلق واختلاط المشاعر: "ها أنا أسير إلى أرض القصيدة. زائرا؟ عائدا؟ لاجئا؟ مواطنا؟ ضيفا؟ لا أدري!".[168]

وبعد عودته إلى رام الله وجد المدينة على حالها لم تتطوّر رغم هذه السنوات، فما زالت الأجواء الريفيّة تغلب على مظاهرها، لكنّه لم ينقم عليها بل تعاطف معها، وعزا ذلك الركود إلى الاحتلال: "قالت لي رام الله في الأيام الماضية الكثير عن أحوالها التي أعاقها الاحتلال"،[169] وعاد ليتمنّى أن تصبح مدينة كبيرة، فتقدمها سيكون مؤشّرا على قهرها للاحتلال.

لكنّ حال المدينة في التسعينات سبب له صدمة؛ فقد كان البرغوثيّ قبد عودته "متوهّما أنّ كلّ بقعة في فلسطين تشبه رام الله تماما"؛[170] للتشابه بين أوضاع المدن الفلسطينيّة، وموقفها من الاحتلال عبر سنوات النضال، وتشابه ظروفها، ولكن بعد (أوسلو) أخذت رام الله بعدا جديدا ميّزها عن غيرها من مدن فلسطين، فرام الله التسعينات أصبحت تمثّل مركز السلطة الفلسطينيّة الوليدة التي كان يحسب من صفوف معارضيها؛[171] لرفضه لاتفاقيّة "أوسلو" التي قامت على أساسها السلطة، وأدرك ضعف تلك السلطة أمام العدو، فانعكس موقف الشاعر من السلطة الفلسطينيّة، وموقفه من اتّفاقيّة (أوسلو) على موقفه من المدينة، ممّا جعله يشعر بالاغتراب السياسيّ.

وظاهرة الاغتراب السياسيّ سمة عامّة في عواصم الوطن العربيّ، نتيجة لاضطراب علاقة الشعب بالحكومة التي يدين لها بالولاء، فتفرض عليه المزيد من القيود بدلا من تقديم الخدمات، وما يترتّب على ذلك من فجوة بين الشعب والحكومة، إلى جانب ضعف الحكومات أمام القوى الخارجيّة، وعجزها عن تقديم الحماية لمواطنيها من أيّ عدوان خارجيّ.[172] ولكن في رام الله كانت هذه الفجوة أكبر إذ لم تكن السلطة الفلسطينيّة قادرة حتى على حماية نفسها، مما عمّق شعوره بالاغتراب.

وهذا الشعور بالاغتراب سبب له القلق والوحدة والانزواء، فعندما جلس أمام الضابط الفلسطينيّ على الجسر شعر بالغربة والوحدة، " فانسحب إلى "بقعة الصمت والانطواء. فراغ غامق اللون يخصّ المرء ولا يعني أحدا غيره"،[173] وفي اجتماعات الضيوف في بيت "أبو حازم" كان يفضّل أن يكون الطرف "الذي يسمع، لا الذي يتكلّم"،[174] أو يمضي أكثر وقته متقلّبا على مخدّته في غرفته الصغيرة.[175]

---

(166) السابق. ص 83

(167) السابق. ص 7

(168) السابق. ص 16

(169) السابق. ص 83

(170) السابق. ص 34

(171) السابق. ص 183

(172) بركات، حليم: **الاغتراب في الثقافة العربيّة- متاهات الإنسان بين الحلم والواقع**. ط1. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربيّة. 2006م. ص 91 - 95

(173) البرغوثيّ. مصدر سابق. ص 27

لكنّ استمرار وجود الاحتلال في رام الله حال دون أنّ يولّد هذا الاغتراب عنده نقمة على المدينة، بل ظلّ يراها ضحيّة للاحتلال؛ فقاطع السياسة، ونأى بنفسه عن المناصب والمكاسب المترتّبة على انضمامه إلى السلطة، وفي ذلك يقول: "أمّا عيبي الشخصيّ فكان أنّني استسهل الانسحاب عندما أرى ما لا يسرّ أدير ظهري... وضعت نفسي على الهامش هربا من أي ملمح من ملامح استبداد السياسة أو الثقافة"،[176] لكنّه لم يتوقّف عن حبّ المدينة.

ولم يكن ذلك الإغتراب السياسيّ هو السبب الوحيد لضيقه في المدينة بل كان الاحتلال هو السبب الأشدّ أثرا على نفسه، فلمّا لاحت له الأرض عن الجسر وجدها تمتدّ أمامه مشوّهة بوجود جنود الاحتلال عليها، فشعر أنّها أصبحت "ملموسة كعقرب، كعصفور، كبئر، مرئيّة كحقل الطباشير، كآثار الأحذية."[177] فصورتها تلسعه كعقرب، أو تكاد تفرّ من بين يديه كعصفور ضئيل الحجم، أو هي حقل طباشير يسهل محوها أو إعادة ترسيم حدودها، بل هي آثار حذاء ترسف في ذلّها وعجزها، وتشكّك في جدارة أبنائها بها؛ "فاستمرار الاحتلال يشكّل تكذيبا يوميّا لهذه الجدارة"،[178] لكن يبقى لها عمق راسخ كبئر عميق وإن كان يخبئ له مصيرا مجهولا محفوفا بالخطر.

وهذا الوضع الذي جمع بين السلطة والاحتلال ولّد عنده مشاعر الرفض، والرفض في الأدب الفلسطينيّ يعني الثورة، والثورة تقود إلى المواجهة،[179] لكنّ قيود الاتّفاقيّة التي عاد بموجبها تقيّده وتقيّد الشعب، لذا كان خائفا أن ينساق الشعب خلف السلام فيفرّطون بالقضيّة، ويخشى من الانغماس في التطبيع حدّ التنازل عن الهويّة، والذوبان في الآخر. فإسرائيل –كما يرى- نجحت "في نزع القداسة عن قضيّة فلسطين" وأصبحت مجرّد إجراءات وجداول زمنيّة لا يحترمها إلا الضعيف.[180] وعلى الجسر لم يتأكّد من العامل إذا كان يهوديّا أم عربيّا لأنّه لم يتحدّث، فـ "ملامح الوجه وحدها لا تكفي للتمييز بيننا وبينهم"،[181] ولم يكن البرغوثيّ من السذاجة ليجعل اللغة هي التي تميّز بين الفلسطينيّ واليهوديّ، فالأمر أعمق من ذلك؛ إنّ المواقف نفسها هي التي تحدّد الهويّة، وعلى المرء أن يتكلّم ليثبت هويّته وانتماءه، فليس فلسطينيّا أيّ شخص يتنازل عن القضيّة، وليس فلسطينيّا من يطوي صفحة النضال على الجراح دون أن يحقّق أهدافه.

فهذه العودة لم تحقّق حلم العودة الذي طالما حلم به؛ فما معنى أن يعود هو أو غيره من الأفراد؟ العودة الحقيقيّة هي عودتهم هم، عودة الملايين، حتّى الموتى ما زالوا ينتظرون العودة في مقابر الآخرين،[182] وهو الآن خائف أن يفقد حقّه في رام الله، ذاك الحقّ الذي يكن أحدٌ يجادله فيه، ولكنّه الآن يتساءل عن دوره في حفظ حقّ ابنه في رؤيتها. وهل سيخرجه من سجلّات اللاجئين والنازحين وهو لم يلجأ ولم ينزح وكلّ ما فعله أنّه ولد في الغربة؟[183]

وإذا كان ضيقه بالمكان بعيدا عنها حمله على الاحتفاظ بصورتها في خياله، فإنّ رفضه لوضعها الجديد جعله يشعر بالضجر فهرب ليستعيد ذكرياته في المدن البعيدة، وتزاحمت صور الأهل والشهداء الذين رحلوا أو

---

(174) السابق. ص 192

(175) السابق. ص 217 - 219

(176) السابق. ص 149

(177) السابق. ص 11

(178) البرغوثيّ. مصدر سابق. ص 11

(179) فرنجيّة، بسّام خليل: **الاغتراب في الرواية الفلسطينيّة**. بيروت: مؤسّسة الأبحاث العربيّة. 1989م. ص169

(180) البرغوثيّ. مصدر سابق. ص 74

(181) السابق. ص 26

(182) ينظر: السابق. ص 47

(183) السابق. ص 19

استشهدوا بعيدا عن الوطن، بل عاد ليستعيد ذكرياته في الغرف الفندقيّة تكريسا لشعوره بالغربة في وطنه، وأصبحت مخدّته هي المكان الوحيد المفتوح على الحقيقة.

الخاتمة:

تعدّ السيرة الروائيّة للشاعر مريد البرغوثيّ عملا أصيلا فريدا في طرحه لتحوّل صورة مدينة رام الله في الرواية الفلسطينيّة؛ فقد استطاع من خلال جمعه بين زمنين أن يقدّم تصوّرا واضحا عن حال المدينة فيهما، ويرصد مظاهر التحوّل والتغيّر بدقّة. وقد خلص البحث إلى عدّة نتائج أهمّها:

1- كانت مدينة رام الله أكثر المدن الفلسطينيّة تحوّلا في موقف الأدباء من المدينة الفلسطينيّة بعد اتّفاقيّة أوسلو؛ وذلك لأنّها أصبحت مركزا للسلطة الوطنيّة الفلسطينيّة، فمثّل موقف الأديب منها موقفه من السلطة نفسها.

2- مثّل البعد السياسيّ أبرز معالم التحوّل في مدينة رام الله؛ فبعد أن كانت المدينة تنكر وجود الآخر ولا تقرّ بإنسانيّته أصبح هذا الآخر يتقاسم بعض المهام مع أبناء الوطن دون إنكار أو مقاومة، واختفت صورة الفدائيّ البطل ليحلّ مكانها صورة ضابط يمارس سلطة شكليّة على الأرض.

3- شهد مجتمع المدينة تحوّلا بعد أوسلو؛ إذ أصبحت رام الله تستقطب أبناء المدن الأخرى، ممّا أدّى لزيادة كثافة السكّان، وازدحام الأسواق فيها، وظهرت شرائح اجتماعيّة جديدة كالعائدين، ورجال السلطة، وترتّب على ذلك ظهور مشاكل اجتماعيّة بسبب التنازع على الأرض، وميل المجتمع إلى الطبقيّة نتيجة لانتشار مظاهر الثراء بين رجال السلطة، إلى جانب قضايا الفساد الماليّ.

4- شهدت المدينة تحوّلا على المستوى الثقافيّ؛ ففي التسعينات لم تعد المكتبة أو دور السينما تقوم بالدور الثقافي الذي كانت تقوم به في الستينات، وتماهى كثير من المثقفين مع السلطة.

5- لم يترك التحول السياسيّ أو التنوع في شرائح المجتمع أثرا على المستوى الأسريّ لمجتمع المدينة، بل حافظ أهل المدينة على العادات والتقاليد الاجتماعيّة التي نشأوا عليها.

6- لم تشهد المدينة تطورا ملموسا على مستوى المكان، فما زالت شوارعها غير نظيفة، وحسبتها تعجّ بالعفن والرطوبة، وذلك نتيجة لسياسة الاحتلال الذي حال دون تطوّر المدينة أو نهضتها.

7- تمكّن البرغوثيّ من التغلغل في أعماق الشخصيّة، وسبر أغوارها؛ ليكشف عن موقف ابن المدينة من التحوّل الذي شهدته.

وأخيرا يمكن القول إنّ البرغوثيّ نجح في ملامسة الواقع الجديد للمدينة من خلال جرأته في الطرح وتلقائيته في التعبير، ولكنّ تبقى صورة "رام الله" عنده غير مكتملة ما لم نقف على الجزء الثاني من سيرته "ولدت هنا، ولدت هناك"، ففيها تكتمل أبعاد الصورة.

مصدر البحث ومراجعه

- البرغوثي، مريد: **رأيت رام الله**. ط4. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربيّ. 2011م
- بركات، حليم: **الاغتراب في الثقافة العربيّة- متاهات الإنسان بين الحلم والواقع**. ط1. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربيّة. 2006م
- البيطاوي، يوسف ذياب: **الرواية الفلسطينيّة، في الضفة وقطاع غزة 1967- 1993**. ط1. رام الله: وزارة الثقافة الفلسطينيّة. 2009م

- باشلار، غاستون: **جماليات المكان**. تر: غالب هلسا. ط2. بيروت: المؤسسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع. 1984م
- حمودة، حسين: **الرواية والمدينة- نماذج من كتّاب الستينات في مصر**. القاهرة: الهيئة العامّة لقصور الثقافة. 2000م
- زهير محمود: **صورة المدينة في الشعر العربيّ الحديث**. عمّان: دار الكندي. 2006م
- سويدان، سامي: **المتاهة والتمويه في الرواية العربيّة**. ط1. بيروت: دار الآداب. 2006م
- صالح، صلاح: **قضايا المكان الروائيّ في الأدب المعاصر**. القاهرة: دار شرقيّات للنشر والتوزيع. 1997م
- الظلّ، حوريّة: **الفضاء في الرواية العربيّة الجديدة**. دمش: دار نينوى. 2011م
- عبد الله، محمد حسن: **الريف في الرواية العربيّة**. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. 1989م
- عودة، علي محمد: **الزمان والمكان في الرواية الفلسطينيّة 1952 – 1982**. ط2. (د.م) مكتبة دار الحياة. 1997م
- عرفة، عبد القادر: **المدينة والسياسة- دراسة في (الضروري في السياسة) لابن رشد**. ط1. القاهرة: مركز الكتاب للنشر. 2006م
- فرنجيّة، بسّام خليل: **الاغتراب في الرواية الفلسطينيّة**. بيروت: مؤسّسة الأبحاث العربيّة. 1989م
- مرتاض، عبد الملك: **في نظرية الرواية**. الكويت: المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب. 1998م
- منيف، عبد الرحمن: **الكاتب والمنفى هموم وآفاق الرواية العربيّة**. ط1. بيروت: دار الفكر الجديد. 1992
- نجمي، حسن: **شعريّة الفضاء- المتخيّل والهوية في الرواية العربيّة**. ط1. المركز الثقافي العربي: بيروت. 2000م

الأبحاث والدراسات

- عدوان، عدوان نمر: **المكان في الرواية الفلسطينيّة بعد أوسلو 1993**. (ر. ج) الجامعة الأردنيّة. 2005م
- العواودة، زين العابدين محمود: ***البنية الدلاليّة لخطاب السيرة الروائيّة الفلسطينيّة المنجز بعد أوسلو/ سرديّة "رأيت رام الله" و"ولدت هناك ولدت هنا" للأديب مريد البرغوثيّ نموذجا***. مجلة الجامعة الإسلاميّة للبحوث الإنسانيّة. م 20. 2012م.
- قرمان، آلاء: **سرديات رام الله في الأدب الفلسطينيّ (فاروق وادي ومريد البرغوثي نموذجا)**. (ر. ج) جامعة النجاح الوطنيّة. 2015م